شعر الحرب فى أدب العرب

للدكتور زكى المحاسنى

لعلامة التأليف فى أدبنا القديم
والحديث الأديب الناقد
الدكتور شوقى ضيف ـ مصر

ما أعرف أدبا من الآداب تتسع جوانب الدرس فيه كما تتسع فى أدبنا العربى، وبعبارة أدق لا أعرف ادبا من الآداب يحتاج الى جهود العلماء والدارسين كما يحتاج الادب العربى، فان من يدرسون هذا الادب يعرفون اننا لم نفسر وجوه نشاطه ولا كشفنا عن جوانب حياته الا قليلا من ظواهر عامة ومن شعراء مشهورين.

ولعل مرجع ذلك طول تاريخ الادب العربى، فتاريخه بين الآداب المختلفة يعتبر أطول تاريخ، وقد تقلبت عليه صروف وعصور وأقاليم لم تتح أيضاً لأدب آخر، اذ أمضى حتى الآن نحو خمسة عشر قرنا. وليست المسألة مسألة زمن، بل هى مسألة مكان ايضا، فقد اتسعت بأصحابه والناطقين به رقعة الارض، فاذا أهل افريقيا الشمالية وآسيا الغربية الا قليلا منهم يشاركون فى آثاره، وصنع نماذجه.

ومكتباتنا فى الشرق ومكتبات اوربا وامريكا فى الغرب تزخر بنصوص هذا الادب وكتبه ودواوينه وكثير من هذه الكتب والدواوين فى حاجة الى النشر، وكثير منها أيضا نشر، وما نشر وما لم ينشر فى حاجة الى الوصف.

ولكن كيف نصف؟ ان لك الخيرة فيما تريد من وصف، فاما ان تصف الادب العربى جملة، وتحاول ان تحدث له مذاهب أو طبقات فنية يتقلب بينها، وأما أن تصفه مجزأ فى عصور واقاليم خاصة.

ولك ما تريد حينئذ من درس الأدب العربى فى العصر الأموى او العصر العباسى أو عصر الايوبيين أو عصر المماليك، ولك ايضا ما تريد من درس هذا الأدب فى اقليم معين كمصر والشام والاندلس.

أزمنة وأمكنة مختلفة، وكل زمان ومكان يوحى بموضوعات متعددة، بحيث اذا ذهبت تحصى الموضوعات الصالحة للدرس فى الادب العربى تعذر عليك الحصر وتأبى عليك الاستقصاء.

وليس من ريب فى أن هذا يحدث طرافة فى أدبنا العربى، اذ تكثر فيه الموضوعات التى يمكن للباحثين من العلماء والدارسين أن يعرضوها على التمحيص والامتحان، وان يستخرجوا منها ما يريدون من حقائق تاريخية وفنية.

وان من واجبنا ان نرحب بكل جهد ممتاز يحاول به صاحبه ان يصور جانبا من جوانب هذا الادب، وخاصة اذا كان يعالج موضوعا لم يعالجه احد من قبله، فانه حينئذ يكون خليقا بالثناء والتقدير.

وهذا ما يجعلنا نستقبل كتاب «شعر الحرب فى أدب العرب» للدكتور زكى المحاسنى بالاعجاب، فقد كتب فى هذا الموضوع كتابا بديعا فيه عناء كبير ورجوع الى ماطبع من كتب العرب والى مالا يزال دفينا فى دور الكتب.

وقد اختار الدكتور زكى لكتابه عصرين، هما العصر الاموى والعصر العباسى، وقدم لذلك بمدخل طويل عن ملاحم الامم القديمة، ثم استرسل فى كلامه عن الملحمة العربية، حتى اذا تم له ذلك بدأ الحديث عن العصر الأموى وهو يفصل ما يستطيع من تفصيل، ويتسع بجوانب البحث، ويمد اطنابه على كل مافى العصر، من حروب حزبية داخلية وحروب اجنبية خارجية.

وفى كل مكان من أمكنة الحرب الداخلية والخارجية نجد الشعر يشفع بالتاريخ، كما نجد الطرافة فى العرض والعناية بالاسلوب، حتى ليتحول فى كثير من الجوانب الى بدع من الشعر، وكأن الكاتب يريد ان يصف الشعر بالشعر.

ويترك الدكتور زكى المحاسنى العصر الاموى الى العصر العباسى، فلا يكاد يبقى على شعر فى مكان من امكنة الحرب داخلية او خارجية، حتى يقف عنده مسجلا له، وقد وصف ما كان من حرب بحرية، وجاء بطرائف من النصوص والحقائق التاريخية.

ويتسع الدكتور زكى فى البحث، فاذا بنا فى القرن الرابع نشاهد حروب سيف الدولة مع الروم، وقد بسط الحديث فى ذلك بسطا شائقاً، وألم بجوانب هذه الحروب الماما دقيقاً، وقد رجع يقرأ ما ترجمه شلمبرجه وفاسيلييف عن مؤرخى البيزنطيين مما يتصل بهذه

الحروب، وجاء هنا بتحقيقات رائعة. سواء فيما يتعلق بالحروب نفسها أو بالاماكن التى نشبت فيها واسمائها الصحيحة وهو أثناء ذلك يقابل بين وثائق المؤرخين من البيزنطيين، ووثائق المؤرخين من العرب، عارضا نتائج بحثه على شعر المتنبى وابى فراس الحمدانى.

وانا لا ارتاب فى دقة ما كتبه عن المتنبى روعته، غير انى وقفت عند ما قاله عنه وعن سيف الدولة من ان كلا منهما وجد صاحبه لما امتاز به من بطولة وفروسية، فالفروسية والبطولة هى التى جمعت بينهما. ونحن لا ننكر ما اتصف به كل منهما فى هذا الجانب، الا اننا نرجع الصلة أيضا الى ما كان من تشيع سيف الدولة والمتنبى جميعا، فالتشيع هو الآخر ربط بينهما ولعله هو الذى جعل المتنبى يعجب ـ الى غير حد ـ بسيده.

وهذا التشيع نفسه هو الذى جعل المتنبى يتفوق فى شعر الحرب ووصف القتال ومعارك الابطال وما يسفح اثناء ذلك من دماء. وهو فى ذلك يعبر عن غريزة الدم المكبوتة فى نفوس الشيعة جميعاً منذ مقتل الحسين، ولعل هذه الغريزة نفسها هى التى جعلت سيف الدولة يغرق حياته فى الدماء مشغولا لا يقرع الحوافر عن المزاهر.

وهذا رأى بدا لى ان اعرضه على الدكتور زكى المحاسنى وهو لا يغض من بحثه الطريف ولعله يطرفنا بابحاث أخرى فى المستقبل عن شعر الحرب فى الاندلس والمغرب، وكذلك فى الشام ومصر اثناء الحروب الصليبية فى الشرق وما كتب فيها من شعر، متناسين الحروب الصليبية فى الاندلس وما كتبه الشعراء فيها منذ عبد الرحمن الناصر.

وما أظننا نبعد اذا قلنا ان حياة العرب فى الاندلس كانت حياة حربية مستمرة، تقوم على الفروسية والبطولة، واننا لفى حاجة الى من يصور لنا هذه الصحف الدامية فى الاندلس العربية وما خطه ابطال العرب فى تلك الصحف من خطوط مشرقة.

وليس كل ما يعجبنا فى عمل الدكتور زكى بحثه ودرسه، بل نحن نعجب أيضا بكثرة مراجعه بين عربية وغربية. واعتماد الباحثين على المراجع جديد فى العربية، ولذلك كان هنالك من لا يعجبون بكثرة المراجع لأن ذوقهم لم يهذب تهذيبا علميا.

ونحن لا نعجب بالمراجع من حيث هى، ولكن لأنه يذكر فى هوامش الكتاب مراجع ثم يكتب ما تمثله من هذه المراجع، ولا يكتفى بذكرها فى آخر كتابه، ولا بأس فى هذا الصنيع. فالغرض الذى نريده قد تحقق عند الباحث وهو قراءة المراجع والاعتماد فى المسائل التاريخية على النصوص لا على الفروض والأوهام.

وقد ساق الدكتور زكى كل ما استطاعه من مصادر ورجع الى كل ما أمكنه من مخطوطات متأنيا متئدا. يجمع الشتات الى الشتات والألفاق الى الألفاق.

وانى اعترف بانه عانى كثيرا فى رسم هذه الصورة الحية الصادقة وتوشيعها بالألوان والظلال والأضواء. ونحن نرحب بهذا المجهود القيم ونثنى على ما فيه من بحث جديد فى دراسته المتقنة الممتعة.

***